دراسة مظاهر الوطنية في أشعار رفاعة الطهطاوي

الأستاذ المساعد الدكتور ولي بهاروند (الكاتب المسؤول)
V.Baharvand@scu.ac.ir
الأستاذ المساعد الدكتور عباس يداللهي فارساني
farsiabas@gmail.com
طالبة الماجستيرمائدة ظهري عرب
daneshmand11@gmail.com
جمهورية إيران الإسلامية
قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة شهيد چمران - أهواز

A Study of National Manifestations in the Poems of Rifa'a al-Tahtavi

Vali Baharvand : Assistant Professor
Abbas Yadollahi : Assistant Professor
Maedeh Zohri Arab: MA Student of Arabic Language and Literature
Islamic Republic of Iran
Department of Arabic Language and Literature- Shahid Chamran University-

الملخّص

الوطنية غريزة فطرية جُبل عليها الإنسان بسبب حبه و تعلقه بالوطن. فقد عبّر الشعراء منذ العصر الجاهلي عن صدق أحاسيسهم إزاء الوطن من خلال حنينهم إلي الديار و البكاء علي الآثار و الأطلال. كان الوطن عبر عصور متلاحقة يطلق علي كافة البلاد العربية بصورة عامة و لم يكن لمفهوم الوطن عند العرب دلالة خاصة و ذلك لأن حياتهم كانت تتميز بالترحال و عدم الاستقرار في مكان ما. قد تطور مفهوم الوطن شيئاً فشيئاً إلي أن اكتسب دلالة خاصة في العصر المعاصر حيث يكون الوطن هو مسقط رأس الإنسان و مكان نشأته. و من هنا نري أنّ ظاهرة الوطنية ظهرت بشكل أوضح في الشعر العربي المعاصر. لقد كانت الوطنية من أهم الأغراض الشعرية في الشعر العربي و نالت عناية بالغة من قبل الشعراء. إن موضوع حب الوطن قد نال تجسيداً شعرياً واضحاً في الأدب العربي في مصر و كان "رفاعة الطهطاوي" رائد الوطنية في مصر و قد كرّس شعره علي الظاهرة الوطنية ليعبّر عن تجربة نفسية و شعورية صادقة. كانت الوطنية عند الطهطاوي تنبع من مشاعره الجياشة تجاه الوطن و بعض أفكاره الجديدة التي استمدها من الغرب. بناءً علي أهمية الوطنية في العصر الراهن لقد حرصنا كل الحرص بقدر ما كان ممكناً لنا إلي استظهار ملامح الوطنية في ديوان هذا الشاعر وفقاً للمنهج الوصفي- التحليلي الذي يعتمد علي تحليل النص الشعري عند الشاعر. و في نهاية المطاف توصلنا إلي أن الوطنية ظهرت في أشعار الطهطاوي بأشكال شتّي و تمثلت في الحنين إلي الوطن و الذكريات الماضية، الإشادة بحب الأوطان، الترنم بحب مصر، التغني بمعالم الوطن، الحثّ علي المقاومة أمام العنف و الكفاح في سبيل الذبّ عن الوطن.

الكلمات الدليلة : الوطنية – مصر- رفاعة الطهطاوي - المقاومة.

Abstract

Homeland is an emotional, natural and spontaneous, meaning a sense of belonging to the homeland. From the era of ignorance, people travel through issues such as nostalgia for the land, the crying of ancient artifacts, and the remembrance of the country, and the beauty of its colorful and colorful nature, of pure love. They have interpreted themselves as their homeland. The country was commonly referred to throughout Arabic territory throughout the whole of the Arab world, and it did not signify anything unique to the Arabs, as one of the characteristics of the Arab life, the transfer and emigration from the land to the other land and the deposition It was a constant place. The concept of the homeland gradually progressed to a point where it found a special interest in the contemporary age. The homeland was understood in the hometown of man and his breeding ground. Thus, the phenomenon of patriotism was manifested more clearly in Arabic poetry. The theme of patrioticism is one of the main elements of the poetry of poets in the field of Arabic literature, which seems to be Poets made special efforts. Ezra became apparent in Egyptian Arabic literature, one of the scholars of the patriotic literature of the two Egyptians, "Rofaeh Tahtawi." He, with his vast cultural and literary activities, succeeded in cultivating the spirit of Patrioticism throughout His friendship with him comes from deep inner feelings such as love and nostalgia for hometowns and other thoughts and thoughts. Modern West. Considering the significance of the concept of patriotism in the present age, we tried, as a fundamental goal, to try, as far as possible, in the study of patriotism in the court of "Rofaeh tahtawi" based on a descriptive-analytical method that was based on the analysis of the poetic text of this poet Stare Starewrd One of the achievements worth mentioning is that Tahtawi has been able to relent the passion of the past, the invitation to patriotism, the love of Egypt, the interest in the historical monuments of the homeland, and the invitation to resist and jihad in the way of preserving.

Key words : Patriotism , Egypt , Rofaeh Tahtawi , resistanc .

١- المقدمة

إنَّ للأدب دوراً رائداً في تجلي مشاعر الإنسان بحيث يمكن القول إنّ الأدب لزال رونقه و لنفذ جماله لو لم يركز علي الصور الشعورية المعبّرة. الشعر هو أرقي أنواع الأدب و يرسم تصويراً واقعياً للأحاسيس العفوية و يعبر عن العاطفة الذاتية و يتلوّن بتلونها و هو الكلام الذي يسود باقي الألوان الأدبية و يعتبر أحد التيارات الإبداعية الرائعة التي مارسها الإنسان منذ سالف الزمان و يتخذه الشاعر سلماً للتعبير عن أحاسيسه و أحلامه و طموحاته و كلّما عمّق في التعبير عن صدق مشاعره حقق لشعره ارتقاءً و سمواً، لأنَّ الشعر الجيد هو الذي يتحدث عن صدق عواطف الإنسان بما أنّه حدث وجداني ينبثق من نفس الشاعر و من عقله و حواسه و دخائله النفسية كما أنه يحفّزُ الشعور و يثير المشاعر.

قد انعكس إحساس الإنسان إزاء الوطن و قضاياهُ بأروع شكل في الشعر و هكذا ظهر الشعر الوطني الذي يعبر الشاعر من خلاله عن حبه و احترامه و إجلاله للوطن. فيمكننا القول إنَّ اتجاه الوطنية هو عنصر رئيسي من عناصر الأدب و قد تجلت روح الوطنية و تألق بريقها في الأدب العربي علي مرّ العصور لاسيما في العصر المعاصر حيث عاشت البلاد العربية أعواماً متتالية تحت الضغط و الدمار و الاستعمار و في ظل هذه الظروف السائدة قد عمد الشعراء إلي إثارة الحماسة و الكفاح الوطني و التحريض إلي الثورة من خلال الشعر الوطني و أفردوا ديواناً كاملاً للشعر الوطني و كان لمسيرتهم الأدبية دورٌ بارزٌ في نمو القيم الإنسانية الجليلة و ترسيخ الثقافة الوطنية و هكذا تبلورت الوطنية كجوهرة ثمينة في أعمال الشعراء المعاصرين بمفهومها الجديد و منهم الشاعر المصري "رفاعة الطهطاوي" الذي اتّسم شعره بالطابع الوطني. قد انعكس ارتباط الشاعر بوطنه علي معظم أشعاره حيث تمَّ استخدام شعره في خدمة الوطن و في سبيل حرية الشعب و استقلاله و قصائده تنمُّ عن حبه و شغفه للشعب المصري. و قد جعل كلماته أنغاماً تحرك الشعور لحبّ البلد و التحمت أنشوداته الوطنية بوجدان الناس و الوطن.

يعتبر رفاعة الطهطاوي في طليعة من مثَّلَ الوطنية الحديثة في مصر و ربّما في العالم العربي فترة من الزمن. فإنَّهُ ينشر أناشيد وطنية تكشف عن حبه و التزامه للوطن و حاول من خلال أشعاره أن يغرس روح الوطنية و البسالة في قلوب الناشئة و المواطنين و يقف

مناهضاً للاستعمار و الاستبداد و رافضاً للخنوء و الذُّل و يتأهب للذود عن كرامة الشعب.

و نظراً لأهمية الوطن و مكانة الوطنية في العصر الراهن و بناءً علي أنَّ الطهطاوي يُعَدّ من روّاد الوطنية في مصر و ظاهرة حبُّ الوطن واضحة المعالم في أدبه، نحاول في هذه الورقة البحثية أن نقوم بدراسة الوطنية و مكوِّناتها في أشعاره من خلال تسليط الضوء علي مضمونها. إضافةً إلي أنَّ هذه الدراسة تبيّن أهم العوامل الرئيسية التي دفعت الشاعر نحو الاتجاه الوطنيّ في الشعر. و المنهج الذي يعتمد عليه هذا البحث هو المنهج الوصفي- التحليلي الذي يقوم بوصف مظاهر الوطنية و تحليلها في النص الشعري بطريقة تجذب المتلقي و تشدُّ انتباهه.

٢- أسئلة البحث

يحاول هذا البحث الإجابة عن السؤالين التاليين:

- ما أهم العوامل التي دفعت الشاعر نحو نظم الأناشيد الوطنية؟
- ما أهم مظاهر الوطنية التي وظّفها رفاعة الطهطاوي في شعره؟

٣- فرضيات البحث

- من أهم العوامل التي دفعت الشاعر نحو نظم الأناشيد الوطنية يمكننا الإشارة إلي الأحداث السياسية و الاجتماعية في مصر و سفر الشاعر إلي فرنسا في فترة من الزمن فضلاً عن نفسية الشاعر التي تتسم بعاطفة شعورية موحية.
- المفروض أنّ الشاعر صوَّرَ لنا مظاهر الوطنية من خلال التغني بمعالم مصر القديمة و الفخر بالعز و المجد في مصر و الإشادة بحب الأوطان و مديح حكام مصر و غيرها من مظاهر تكفي لرسم صورة متكاملة للوطنية عنده.

٤- خلفية البحث

بِما أنَّ الوطنية من أهم الموضوعات في الأدب، لكنها لم تدرس بشكل أوسع من قبل الباحثين و هناك دراسات في الأدبينِ العربي و الفارسي التي تعالج هذه القضية. أما فيما يخص رفاعة الطهطاوي الذي تألق نجمه في ميدان الأدب الوطني و يعدُّ أحد الوجوه الشاخصة في هذا المجال، ما عدا الكتب الموجودة فلم نَرَ دراسات ترتكز بصورة خاصة علي الوطنية عنده و لكن وجدنا دراسات عامة حول هذا الشاعر نذكر بعضها علي سبيل المثال لا علي سبيل الحصر:

١- مقالة "رفاعة الطهطاوي...رؤية من قريب" من محمد سليمان منشورة في مكتبة الإسكندرية. يتناول الكاتب في هذا المقال آراء الأدباء و الناقدين حول شخصية رفاعة الفذة و تقتصر هذه المقالة علي الأبحاث العامة حول رفاعة و لم تعالج أدبه و أشعاره.

٢- رسالة "منهج رفاعة الطهطاوي و مدرسته في الإصلاح بين الأصول الإسلامية و الأفكار العلمانية" تأليف عصام السيد محمود، منشورة في مكتبة دار الحكمة بمصر. يعتبر هذا البحث محاولة جادة لكشف جوانب الإصلاح في المجتمع من قبل رفاعة الطهطاوي و كما يبدو إن الرسالة لا تدخل مجال أدب رفاعة و ترتكز علي أعماله الثقافية في إصلاح المجتمع المصري.

٣- مقالة "الوطنية في شعر رفاعة الطهطاوي" بقلم أحمد سيد محمد. تناول الباحث في هذه المقالة بعض من جوانب الوطنية عند الطهطاوي. و تعتبر هذه المقالة محاولة جيدة لكشف وجوه الوطنية في شعره و لكن المقالة تفتقر التحليل الشامل لهذه العناصر الوطنية.

٤- مقالة "رفاعة رافع الطهطاوي أحد بناة النهضة العربية الحديثة" من شحادة الخوري منشورة في مجلة التراث العربي. هذا المقال يدور حول حياة رفاعة و يتطرق الباحث فيه إلي بعض نشاطاته العلمية و الأدبية.

أما بعدَ ما أمعنا النظر في الأبحاث المختلفة لم نعثر علي بحث مستقل يقوم بدراسة مظاهر الوطنية في شعر رفاعة الطهطاوي و هذا ما حرّك فينا المشاعر لدراسته دراسة مستفيضة تليق بتجربة الشاعر المتميزة علي صعيد الأدب الوطني. فَتُعتبرُ دراستنا هذه هي الدراسة الفريدة في هذا المجال و يبدو إنّها تحمل في طياتها شيئاً جديداً. و تتجلي أهمية هذه الدراسة في كونها تناولت موضوعاً حسّاساً له مكانة جليلة في الثقافة الوطنية و من الواضح أن ملامح الوطنية في شعر الطهطاوي لم تأخذ حقّها بعد في الدراسات فهذه الدراسة أخذت علي عاتقها قسماً من هذه المسؤولية.

٥- تعريف الوطن و الوطنية

قبل البدء في الحديث عن الوطنية نقف قليلاً عند معني الوطن، «جاء معني الوطن في المعجمات اللغوية بمعني: مربض الإبل و الغنم، ثم صار يعني المنزل الذي يتخذه

الإنسان سواء أ كان مسقط رأسه أم لم يكن، و يقول ابن سيده: "الوطن حيث أقمت من بلد أو دار"، و توسع مفهوم الوطن فصار الوطن كل مكان ينزل فيه الإنسان و يعده مستقراً و مقاماً. و وطن بالمكان و أوطن: أقام، و كل مقام أقام به الإنسان لأمر فهو موطن له.»١ و في تعريف آخر إنّ الوطن هو المكان الذي يحتوي الإنسان و يكون بمثابة حضن الأمومة. الوطن هو أمل الإنسان و الكنز الذي لا يقدر بثمن. و ممّا ينبغي الإشارة إليه، أنّ «الوطن هو البلاد التي يقيم فيها الإنسان و يتخذها مستقراً دائماً له و هو من هذا القبيل شبيه بالبيت، فالبيت هو الملجأ الصغير الذي يلجأ إليه الفرد مع أعضاء أسرته، و هو البيت الكبير الذي يضم عدداً كبيراً من الأفراد و الأسر.»٢ نظراً لتعريف الوطن نستطيع القول أنّ الوطن ملاذاً آمناً يلجأ إليه الإنسان و يبعث في نفسه المسرات.

أول ما يتبادر إلي الذهن في مفهوم الوطنية هي أنّ «الوطنية تعني حب الوطن، و الشعور نحوه بارتباط روحي، و هي نزعة إجتماعية تربط الفرد بالجماعة، و تجعله يحبها و يفتخر بها و يعمل من أجلها و يضحي في سبيلها.»٣ لا غرو إنّ محبة الوطن تجذرت في قلب الإنسان عفوياً فمن الطبيعي أن تسيطر علي مشاعر الإنسان باستمرارية و هي سمة فريدة لا يتسم بها سوي العظماء. و بعبارة أخري «إنّ الوطنية عاطفة نبيلة يستشعرها المواطن تجاه وطنه من خلال مجموعة من الروابط الروحية التي تتنامي في داخله و تنعكس في سلوكه.»٤

و الواقع أنّ الوطنية مذهبٌ فكري يلتزم فيه الإنسان أن يذخر معظم حبه و جُلَّ إهتمامه و عنايته للوطن. و الوطنية فكرة متحدة منسجمة تحرّض و ترغّب المواطنون لحماية الوطن و الصمود و التحدّي في سبيل الحرية و حفظ الكيان الأرضي بكل ما يمتلكون من قوة ليعيشوا حياة كريمة في وطن عزيز. أضافة علي أنها تأكد علي عدم اليأس و التشبث بالأرض و الوطن و التمسّك بأحبال الحرية و إنها تبعث النشاط و الحركة و الحيوية في أرجاء الوطن.

لقد سبق أن سقنا كلمة حول الأدب و الشعر و تجلي مشاعر الإنسان في الأدب و تجدر الإشارة هنا إلي أنَّ الوطنية انبثقت إلي ميدان الأدب و استلهم منها زمرة من أدباء العرب. و هكذا أصبحت الوطنية تياراً ادبياً و دخلت في ساحة الأدب بأروع شكل و تجلّت في الشعر إحساساً صادقاً فطرياً لتنتج إبداعاً أكثر لمعاناً و صفاءاً.

٦- الشعر الوطني و أهميته

الشعر الوطني هو تعبير عن شغف المرء و اشتياقه إلي وطنه و محل نشأته و ينبع من عاطفة ذاتية صادقة. و لقد تسوق هذه العاطفة الشاعر إلي أن يجعل من نفسه شاعر أمته الوطني و تتدفق هذه المشاعر الوطنية في قلبه لينتج عنها شعرا بقدر ما أجادت به قريحته.

هذا اللون من الشعر نجد سمات منه في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي و هناك قصائد جاهلية نستطيع أن ندخلها في حقل الوطنية فالشاعر الجاهلي كان يعبر عن شوقه إلي الوطن و الديار من خلال البكاء علي الأطلال و الحنين إلي المنازل الخالية و كان حبّ الوطن يشكل مادة غزيرة في الأدب الجاهلي و له مكانٌ متميزٌ في ذاكرة التاريخ و علي ما يبدو كان مفهوم الشعر الوطني في تلك الحقبة الزمنية مفهوم عام يقتصر علي الإغتراب و الحنين للوطن. و مرّت الأيام و توالت العصور لنصل إلي العصر المعاصر الذي تأزمت فيه المواقف و حدثت تغييرات أساسية في البلاد العربية و أخذ المحتلون يحتلون البلاد العربية. هذه الظروف المرعبة الجديدة أيقظت في نفس الشاعر حب الوطن العربي و هكذا غدا الشعر الوطني أوسع نطاقاً و أكثر إتساعاً من ذي قبل و أخذوا شعراء الوطنية يعالجون القضايا السياسية و الإجتماعية بصورة خاصة في الشعر الوطني. و أصبح الشعر الوطني صورة شعرية واضحة من ملامح الأحداث الجديدة في العالم العربي في الآونة الأخيرة. و عندما تبلغ المأساة ذروتها و تحيط بحياة الشعب من كل جانب لم يقف الشاعر مكتوف الأيادي إزاء هذه المأساة العربية بل يتخذ شعره كسلاح يناضل به أعداء الوطن إذ يدعو من خلاله الشعب إلي الكفاح و الصمود في الجهاد. و من هذا المنطلق نستطيع القول إن الشعر الوطني هو الذي يهتم بإصلاح الوطن علي الصعيد الثقافي و السياسي و الإجتماعي و يتغني بماضي الوطن المجيد كما أنه يدعو إلي الحرية و السلام و التحرر من العبودية.

لابدّ لنا من الإشارة إلي أنّ «حب الوطن و الشعور نحوه بالارتباط الروحي تفرض علي الشاعر المعاصر أن يعبّر عن آلام و آمال أمته و إلا فليس بشاعر من لا يستطيع أن يري في مجتمعه أو عالمه إلا المظاهر الخارجية و لا يشغله منها إلا البريق الزائل، و مثله من يبصر الحقيقة و لكنه لا يفصح عنها... أو يركب موجة الإبهار ليخطف إليه الأبصار. و إنما الشاعر هو الذي يدرك الحقيقة و يجاهر بها في لغة فنية آسرة.»[٥] لقد كان الشعر

الوطني وسيلة فنية اتخذها الشاعر مسلكاً إلي النضال لا يقل خطورة و أثرا في النفوس عن الفعل النضالي المباشر و إنه إحساس مقدس لا تضاهيه أي قيمة أخري و يستمد من مبادئ الدين و القيم الإنسانية الرفيعة.٦

يحتل الشعر الوطني منزلة كبيرة في الأدب العربي حيث نظم عدد كبير من الشعراء هذا النوع من الشعر الذي يتضمن المشاعر الوطنية و يظهر مدي تعلق الشاعر بوطنه و الفخر بكل ما يمتّ إلي الوطن بصلة. هناك نوع من الشعر الوطني يأتي علي هيئة النشيد الوطني و هذا النشيد هو الذي يضرب علي وتر احساس الشعب و يمنحهم القوة للحماسة و الثورة علي الاحتلال و يردده المواطنون في ساحات الحرب أو في المناسبات الوطنية.

الشعر الوطني ذو أهمية بالغة نذكر بعض مزاياه علي سبيل المثال:

«- حث الناس علي أن يدافعوا عن أوطانهم من الظلم و غيره.

- بعث الأمل في نفوس الشعوب بقوتها و قدرتها علي التحرر من عبوديتها.

- بيان أهمية قيم الحرية و العدالة و الكرامة و الاستقلال و الإرادة و غيرها.

- دعوة الشعوب للكفاح و النضال و الثورة.

- تهديد المحتل بثورات عارمة ستقضي علي ظلمه و دمويته و جرائمه.»٧

لاشك أنّ الشعر الوطني بأبعاده المتنوعة استطاع أن يواكب عجلة التطور الزمني و يصور الأحداث السياسية و الإجتماعية عن كثب و يرتفع إلي مستوي أسمي علي مرّ الأيام و إنه شعر ملتزم يترجم هموم الشعب ليستقر في قلب المواطن و يكون بمثابة المنبه الداخلي لقلبه ليتوهّج مشاعره و يثير تعلّقه بوطنه.

٧- نظرة موجزة إلي حياة رفاعة الطهطاوي و آثاره

ولد رفاعة بمدينة طهطا بصعيد مصر عام ١٨٠١ و بعد مولده بقليل توفي والده بدوي الطهطاوي فتولى أخواله كفالته و أشرفوا على تعليمه، و بعدها انتقل إلى القاهرة و التحق بالأزهر. بعد أن أتم رفاعة دراسته بالأزهر في عام ١٨٢٢ تولى التدريس فيه مدة عامين. قد كان رفاعة الطهطاوي مدرساً ممتازاً و أقبل عليه الطلاب و كانت حلقات دروسه حافلة بالتلاميذ. يقول مؤرخ حياته و تلميذه "صالح مجدي" في هذا الصدد: «كان – رحمه الله- حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه... و كان قادراً

علي الإفصاح عن المعني الواحد بطرق مختلفة، بحيث يفهم درسه الصغير و الكبير بلا مشقة و لا تعب، و لا كدّ و لا نصب.»٨ بعدها انتقل رفاعه للعمل كواعظ باحدى فرق الجيش المصري، و لما طلب محمد علي من أستاذه الشيخ العطار أن يختار له من علماء الأزهر عالماً يتمتع بأهلية ليكون إماما للبعثة العلمية إلى باريس اختار رفاعة لهذه المهمة، فسافر الطهطاوي مع البعثة عام ١٨٢٦ و ظل هناك خمس سنوات كانت من أهم سنوات عمره.٩ لاشك أنَّ الطهطاوي بعدما سافر إلي باريس ازدادت معارفه و اتسعت مداركه و نفذت مصيرته لكنه احتفظ بشخصيته، و استمسك بدينه و قوميته، فأخذ من المدينة الغربية أحسنها، و رجع إلي وطنه كامل الثقافة، مهذب الفؤاد، ماضي العزيمة و سليم الوجدان، عاد و قد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم و التعليم.١٠ عندما عاد الطهطاوي إلى مصر في عام ١٨٣١ كان متحفزا لإصلاح المجتمع المصري و تعليم الشعب و تنبيه الأذهان و قد عهدت إليه الحكومة الكثير من المهام و المسئوليات، فعين مترجما و مدرسا للغة الفرنسية في مدرسة الطب، ثم نقل إلى مدرسة المدفعية و خلال ذلك قام بترجمة بعض الكتب الفرنسية في الهندسة و الجيولوجيا و الجغرافيا و الطب. و إستمرَّ رفاعة الطهطاوي بهذه الجهود حتي أن أدركته الوفاة عام ١٨٧٣ للميلادي.

نختم ترجمة حاله بذكر بعض من أهم مؤلفاته، مع وصفها بقدر الإمكان:

خلاصة الإبريز والديوان النفيس: و هو رحلته إلى فرنسا، ذكر فيه ما شاهده من العادات، و الأخلاق، و الأزياء، و آثار التمدُّن الحديث، و كل ما يتعلق بذلك.

التعريبات الشافية لمريد الجغرافية: و هو مجلد ضخم ترجمه من الفرنساوية إلي العربية لتدريس الجغرافية في المدارس المصرية، و قد طُبع غير مرة في مجلد كبير.

كتاب المرشد الأمين في تربية البنات والبنين: و هو مجلد واحد ألَّفه للتعليم في مدرسة البنات.

كتاب التحفة المكتبية في النحو: ألَّفه لتعليم قواعد النحو في المدارس الابتدائية، مطبوع طبع حجر.

مواقع الأفلاك في أخبار تليماك: و هو تعريب وقائع تليماك الفرنساوية، ترجمه يوم كان في الخرطوم مع بعض التصرف، و هو مطبوع في بيروت.

مباهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية: و هو بحث عن آداب العصر و ساسته و صنائعه و علومه و فنونه، و مطبوع بمطبعة بولاق الأميرية.

كتاب توفيق الجليل و توثيق بني إسماعيل: و هو تاريخ لمصر، طُبع و نشر.١١

يلاحظ أنَّ الطهطاوي بآثاره المتعددة قد ترك لنا مكتباً غنياً من الفكر التنويري الحديث و حمل مصباح العلم و العرفان يضيء به أرجاء بلاده و ينير به البصائر و العقول و عمل علي بلورة الفكر التنويري في المجتمع العربي عامة و في المجتمع المصري خاصة. و هكذا أثري رفاعة الطهطاوي بفكره ساحة الفكر و العلم في مصر و بإبداعاته فتح نوافذ جديدة في مصر و ربّما في العالم العربي بأسره لم تنفتح من قبل.

٨- مصادر الوطنية عند رفاعة الطهطاوي

إن دراسة الوطنية في أشعار رفاعة الطهطاوي تفرض علينا أولاً معرفة المصادر التي ساهمت في تكوين الرؤية الفكرية و الوطنية عند الطهطاوي و من أجل هذا فمن اللازم أن ندرس هذه المصادر و المؤلفات لنكشف العوامل الرئيسيه التي ساقته إلي إتجاه الوطنية.

في البداية لابّد من الإنتباه إلي أنَّ رفاعة الطهطاوي كان منذ نعومة أظفاره شديد التعلق بالوطن و عاشقا لمصر يتغزل بها و تزداد عواطفه و أحاسيسه حتي تشكل إحدي عوامل تكوين الوطنية المصرية عنده. و قد تلقي هذه المشاعر من فطرته السليمة و إيمانه الصادق و انطلاقاً من هذه الفطرة أخرج شعره المعبّر عن معاني الحب و الحنين للوطن. أضِف إلي ذلك إنَّ الشاعر بسبب رحيله إلي باريس و نفيه إلي السودان في ما بعد، إبتعد عن الوطن ردحاً من الزمن و هذا الإبتعاد هيَّج مشاعر الحنين و الغربة في قلب الشاعر حيث شكلت هذه المشاعر، الرابط العاطفي بينه و بين وطنه. و هذه هي العوامل و الجوانب الذاتية و الفردية التي دفعت الشاعر نحو اتجاه الوطنية و لعبت دوراً كبيراً في تدفق الوطنية الصادقة في شعره.

و الآن يحسن بنا الإشارة إلي أنّ شعر الطهطاوي بالرغم من أنّه إبداعاً فردياً لكن فرديته لا تنفي اجتماعيته و هذا القول يفسر لنا إنَّ إضافةً علي العوامل الذاتية و الفردية هناك مصادر إجتماعية أثّرت في تكوين أدب رفاعة الطهطاوي. فإن الشاعر نشأ في بيئة كانت مشحونة بالقلق و الصراعات و الأحداث القائمة و أحوال البيئة كانت قائمة علي

التنافس و التطاحن و كما هو معروف بعد حملة فرانسة علي مصر إنقلبت الأمور علي عقبها و من الواضح أنَّ مصر بدأت تعيش عصر الثورة. و كانت الثورة حركة متطورة، بدأت من مرحلة التطور الفكري إلي مرحلة التحول الإجتماعي حيث استيقظت الأمة العربية و خاصة مصر من سُبّاتها العميق «هذه هي اليقظة القومية المصرية و العربية التي بدأت إحساساتها الغامضة المذوبة في محيط الجامعة الدينية تتبلور منذ الحملة الفرنسية حتي غدت في أدب رفاعة الطهطاوي و تلاميذه تياراً فكرياً كبيراً ثم عميقاً ثم عارماً حتي اكتسح كل ما أمامه من ولاءات.»١٢ عاش الطهطاوي في مجتمع له مشاكله و همومه الخاصة و سعي في هذا المجتمع إلي حل المشاكل و وضع حياة مثالية حيث يكون الشاعر لسان حال مجتمعه و جزء لايتجزأ من أبناء شعبه و يسعي لتغير الظروف. و هكذا تضافرت تلك العوامل و الأسباب لتؤدّي إلي ظهورِ الوطنية الحديثة في أدبه كتياراً فكرياً جديداً. في ضوء ما تقدم قد بدا تأثير المجتمع واضحاً في شعر رفاعة الوطني و لاشك أنَّ أهم عامل في تكوين الوطنية عند الشاعر يكمن في العامل الإجتماعي و هذا العامل لا يكون عاملاً هامشياً و لايقلّ عن أهمية العامل الذاتي. و نستطيع القول إن بتوافر المصادر الذاتية و الاجتماعية مع بعض تتجسَّد الظاهرة الوطنية في أدب رفاعة الطهطاوي.

بالإضافة إلي هذا كان مصدر الوطنية الآخر عند الطهطاوي معرفته علي الأفكار الغربية و الثقافة الفرنسية و سفر طهطاوي إلي باريس مهَّد له الطريق للأخذ بهذه الثقافة. إن الوطنية كمفهوم حديث جاءت من الثقافة الغربية و احتكاك فكري بالغرب «و يبدو إن الطهطاوي – مترجم كلمة الوطن و الوطنية من الدستور الفرنسي- لم يكن يقصد في حديثه عن الوطن، الوطن العربي، بل الوطن المصري و أرضه، التي ربما عدّها في مرحلة متقدمة له، جزءاً من البلاد الإسلامية»١٣ نستطيع القول إن الوطنية ناتجة من الثقافة الغربية و بعض الأفكار الجديدة التي حصل عليها الطهطاوي من خلال تعمقه في العلوم الفرنسية و لاسيما النصوص السياسية و الإجتماعية و ترجمته لدستور فرنسا. كان الطهطاوى أول مفكر عربى يصوغ مصطلح "الوطن" و يستخلصه من إطار الموروث التاريخي لمفهوم "الأمة" الإسلامية، ليضع بذلك بذرة الوعى القومى فى الثقافة العربية لأول مرة. و كانت صياغة هذا المصطلح بمثابة علامة على تجاوز المفهوم

الإسلامى التقليدى للأمة الذى ينحصر فيمن يدينون بالإسلام، و لا يرتبط بوطن محدد، و هو المفهوم الذى ظل شائعاً فى البلاد الإسلامية حتى بدأ مفهوم "القومية" يفد فى الربع الأخير من القرن فى إطار التأثر بالفكر الغربي. و قدم الطهطاوي تعريفاً للأمة تجاوز به كثيراً المفهوم الإسلامي التقليدى، فلم يجعل "الدين" من بين الأسس التى يجب أن تقوم عليها "الأمة".١٤

و صفوة القول إنّ رفاعة الطهطاوي استمدّ الوطنية من عناصر فطرته الذاتية النقية و التطورات الجديدة في مصر و معرفته علي الثقافة الفرنسية.

٩- مظاهر الوطنية في شعر رفاعة الطهطاوي

كما أَسْلَفنا إنَّ ديوان رفاعة الطهطاوي يزخر بالمظاهر الوطنية و الشاعر يتخذ وسائل متعددة ليعبر عن الوطنية. و حمل لنا من الشعر مظاهر تكفي لرسم صورة متكاملة لهذه النزعة سنراها من خلال قراءة ديوانه. و الأن يحسن بنا أن نتوقف وقفة تحليلية جمالية عند أشعار رفاعة الطهطاوي لندرس فيها صور الوطنية عنده و نسعي أن نبين مكوّنات هذه الوطنية و مظاهرها من خلال كشف رموزها و معانيها للوقوف علي تجلياتها و أبعادها الشعورية و آفاقها الجمالية. و قد تتمثل الوطنية في شعر الطهطاوي في مظاهر جمة نذكر بعضاً منها علي سبيل المثال مع تحليها بقدر الإمكان:

٩-١- الحنين إلي مصر

يشكل الوطن هاجساً كبيراً في التكوين العاطفي للإنسان فلا نستطيع أن نتصور إنّ إنساناً يعيش براحة و هو بعيد عن وطنه و حتي و إن فقد وطنه يظل يعيش الوطن في قلبه مادام حياً. « إنَّ الحنين إلي الأوطان طبيعة في النفس البشرية، و في البدوية خاصة، و هو منسجم مع طبيعة العربي الحساسة في بيئته الصحراوية الواسعة،... لذلك كان الحنين غريزة في نفس العربي و ارتبط الحنين إلي الأوطان بكرامة الإنسان و اعتزازه، و كانت الغربة عن الوطن همّاً شديداً.»١٥ إنّ موضوع الحنين إلي الوطن من القضايا التي زخر بها الشعر العربي و استرعت هذه القضية أذهان كثير من الشعراء علي مرّ العصور. لقد عبّر الشعراء في روائعهم عن حنينهم الجارف للوطن في لغة شعرية رشيقة و عذبة المعاني.

يمكننا القول إنّ الحنين للوطن في شعر رفاعة الطهطاوي تعبير عن شوقه المتلهّف إلي وطنه مصر. و اقترن الحنين إلي الوطن عنده بالغربة حيث ساهمت غربة الشاعر في نظم أشعار تتمحور حول الحنين إلي مصر. و بما أنَّ الطهطاوي قد ذاق طعم الغربة مرتين من خلال سفره إلي باريس و نفيه إلي السودان، أحاطت به مشاعر الحنين من كل جانب. و كان الشاعر من خلال قصائده يعبّر عن تعلقه بمصر و خواطر الغربة و النفي ليرسم مشاعر الوطنية بصدق و حرارة في لوحة فنية رائعة بطريقة أخّاذة تسترعي إنتباه القارئ. عبّر الشاعر عن مرارة البُعد عن الوطن و الصبابة و الشوق إلي الأهل و الأحباب ليعرض للقارئ مشهداً حسياً من الحنين الذي يختلج في ضميره، حيث يقول:

نـاحَ الحمـامُ علـي غصـون البـانِ فأبـاحَ شـيمةَ مغـرمٍ ولهـانِ
و كأنـه يلقـي إلـيّ إشـارةً كيـف اصـطباري مُـذ نـأي خِلانـي
مـع أنـني والله مـذ فـارقتهم مـا طـابَ لـي عيشـي و صـفوُ زمـاني
و ببـاطنِ الأحشـاءِ نـارٌ لـو بَـدَت جمراتُهـا مـا طاقهـا الـثَّقلانِ
أبكـي دمـاً مـن مهجـتي لفـراقهم و أودُّ أن لا تشـعرَ العينـان١٦

عبر الشاعر في هذه القصيدة عن حنينه إلي الوطن و أصحابه من خلال توظيفه لكلمات مفعمة بمعاني الغربة و تبدو نفسية الشاعر مليئة بالحزن و الأسي و نار الفراق في أحشائه لا تعرف الخمود. يبدو أنَّ الشاعر كتب هذه القصيدة أثناء غربته في باريس و الطهطاوي بما أنَّه كان في أجمل البلدان و هي فرانسا لكنّه لم يفقد حبه العظيم للوطن و ظل ينشد قصائد تنم عن معاناة يحملها علي كتفيه بسبب ابتعاده عن الوطن. فصور الشاعر في هذه الرائعة سرب من الطيور التي تدور حوله و تغريدها يعيد إليه ذكريات الوطن ليكشف لنا بهذا التصوير الجميل معاناة النفس في حال اغترابها من الوطن و توحّدها في بلاد نائية، فهو يحترق بنار الشّوق فتخرج أنفاسه كلهيب النّار، وتنسكب دموعه دماً من إثرها. و من الملاحظ إن اسلوب الشاعر في هذه القصيدة يمتاز بالصفاء الفني و عدم التكلف و بالألفاظ الموحية التي تمتاز بالعذوبة و حُسن الاختيار.

و في قصيدة أخري نري الشاعر صور لنا حالته النفسية بعد فراق بلدته "طهطا" التي يحبها حباً عميقاً:

و قـــد فارقـــتُ أطفـــالاً صـــغارًا بطهطـــا، دون عـــودِي و اعتيـــادِي
أفكـــرُ فيهـــمُ سِـــرًّا و جَهـــرًا و لا سَـــمَرِي يطيـــبُ و لا رُقَـــادِي
أُريـــد وصـــالَهم، و الـــدَّهرُ يـــأبي مُواصَـــلَتي، و يطمـــعُ في عِنـــادِي
و طالـــت مـــدةُ التغريـــب عَـــنهُم و لا غـــنمٌ لـــدي ســـوي الكســـاد١٧

نظم الشاعر هذه القصيدة أثناء النفي بالسودان و هو يعاني و يشعر بالألم بسبب الفراق و البُعد عن الوطن و الأحبة. و نشاهد إنّ اشتياقه لأطفال بلدته طهطا جعله يفكر فيهم ليلا و نهارا و يرسم في مخيلته الأطفال الذين أقضي معهم أجمل أوقاته و يهيج ذكرهم أشواق الشاعر و لواعجه و هذا يدل علي مدي حبه لهم. و هو بهذا الحزن و الحنين يمثل نفسيته التي تعشق الوطن و ليس لها قرار في حال ابتعادها عن الوطن. فمن يقرأ هذه الأبيات لا يخفي عليه إنّ مشاعر الحنين إلي مصر نابعة من المحبة العميقة تجاه الوطن في قلب الشاعر حيث أنّ «وطن الإنسان هو مسقط رأسه... و إنه المكان الذي أمضي فيه المرء طفولته. و تألف النفس الوطن حتي كأنه لها جسد.»١٨ استطاع الشاعر في هذه القصيدة أن يصور مكانة الوطن و أهميته و مرارة البعد عنه و رسم لنا نفسيته المغتربة و المبعثرة باستخدام كلمات تدل علي التحسر و الهموم الذاتية و الفراق الذي أضناه و علي الرغم من هذا الحزن يتمني الشاعر العودة إلي الأهل و الوطن. الجدير بالذكر هو أنّ «رفاعة يلجأ إلي الحنين إلي مصر لا ليستنهضها ... بل ليستنهض نفسه الحائرة بذكر وطنه القوي دائماً في نظره، و كأنه اثناء غربته بفرنسا كان يستنهض مصر و يمدها العزم من ذاته أما في غربته بالسودان فإنه كان سينهض ذاته مستلهما قوة مصر و هو في كلا الموقفين شاعر الوطنية.»١٩ و مما لايخفي إن مشاعر الحنين إلي مصر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالوطنية عند الشاعر و تشكل إحدي مظاهر الوطنية في أدبه الوطني.

٩-٢- الفخر بمعالم مصر

إن المعالم الأثرية في كل وطن هي أساس الفخر و الاعتزاز و هي الهوية التي يحملها المواطن و ينبض قلبه حباً لها. من الحقائق المؤكدة أنّ معظم شهرة مصر و فخرها نتيجة آثار التمدن و العمران و الحضارة القديمة فيها. و كما هو معروف مصر غنية بالمعالم الأثرية و الآثار التاريخية و تعد هذه المعالم رمز الشموخ و القوة لها. إنّ رفاعة

الطهطاوي يشعر بالحب و البهجة في وطنه الذي ملئ بالمعالم القيمة بما أنه يعيش في ذلك الوطن الجميل و يشعر فيه بالراحة و الإنتماء. و من أهم مظاهر الوطنية التي استخدمها في شعره هي ظاهرة الفخر بمعالم مصر. حيث عبر الشاعر عن فخره و حبه إلي المعالم الجليلة و آثار التمدن في وطنه ليظهر ما في نفسه من حب إلي تل الرحاب الطاهرة، فيقول:

ممالـــــك مصـــــر معمـــــورة و بـــــــالخيراتِ مغمـــــــورة
مـــــآثر مصـــــرَ مشـــــهورة بهـــــا التـــــاريخُ واصـــــلنا
شـــــدَت بعجائـــــب الـــــزمنِ بـــــدت بغرائـــــب المـــــدنِ
وَفـــــت بمناقـــــبِ الـــــوطن معالمنـــــــــا تـــــــــداولنا٢٠

حرص رفاعة الطهطاوي في هذه القصيدة علي أن يعلي من صوته و يزيد من فخره بوطنه و حاول أن يفتخر بكل ما يتصل بوطنه. و من هنا نلاحظ أنه يفتخر بشهرة المآثر و المدن في مصر. من الواضح إنّ بالنسبة للشاعر لا شيء أغلي من هذا الوطن الذي بدا فيه العجائب من كثرة العمران و التمدن. يزيد الشاعر من روعة هذه الأبيات بتوظيفه لكلمات توحي بالفخر كأدوات تعبيرية لتبث في الوجدان التعلق بالوطن. و قد احتوت هذه القصيدة علي ألفاظ سهلة و قوية و مؤثرة في المتلقي و تمكن الشاعر من خلالها أن يقوم بوصف مصر و الفخر بآثارها و أمجادها.

ويمكن القول أنّ «الطهطاوي لايمل من تذكيرنا بهذه الأمجاد الغابرة: و قدماء المصريين من الأزمان الحالية و القرون البالية يعانون الأعمال العجيبة و يجتهدون في إنجاز الاشغال الغريبة كالأهرام و المسللات العظيمة و التصاوير و التماثيل العجيبة الجسيمة»٢١ و في قصيدة رائعة يذكر الأهرام التي تعدُّ من أهم المعالم الأثرية في مصر، نذكر أبيات منها علي سبيل المثال:

و كنانـــــةُ الله كـــــم فوّفـــــت منهـــا – و إن بَعُـد العـدو – سِـهامُ
و قديمـــة شـــابَ الزمـــانُ و حســـنُها بـــاقٍ و لم تهـــرم لهـــا أهـــرام٢٢

يبرز الشاعر في هذه القصيدة مكانة الأهرام التي تخلد الذكري و يؤكد إنّ مهما مضي الزمان عليها فهي لم تهرم و هذا التصوير الذي يقدمه الشاعر يعكس قيمة المعالم و قوتها في مصر و ناتج من عاطفة الحب إزاء الوطن في مكنونات نفس الشاعر. و هكذا نري بوضوح إن معالم مصر تشكل أهم عناصر الوطنية في وجدانه و تتجلي في معظم قصائده حيث ينبض الشاعر بالحب للآثار و الأمكنة التاريخية و يجسد تعابير فخر وطنية تعبيراً عن مشاعر الفخر و الاعتزاز بها.

٩-٣- الإشادة بحب الأوطان

الوطن هو المكان الذي يحبه الإنسان و القلب و النبض بالنسبة له و إنه بمثابة أنشودة الحياة و ينتمي إليه الإنسان مثلما ينتمي إلي أمه. حب الوطن شيء جميل ينمو في النفس و يزداد في القلب. إن كثير من الشعراء نظموا روائع في موضوح حب الوطن و الطهطاوي كشاعر وطني أمضي سنوات عمره منشغلاً بهذا الموضوع من خلال إبداعاته التي تغنت بالدعوة إلي حب الأوطان و الترنّم بحب مصر. لقد سعي الشاعر من خلال أشعاره أن يظهر هذه العاطفة و يعبر عنها بنبرة كلها حرارة و شوق إلي مصر. فيتغزل الشاعر بمصر كما يتغزل العاشق بمعشوقته و يترنّم بحبه إلي مصر بصورة جلية، فيقول:

نظـــمُ النســـيب و الغـــزل　　في غـــــير مصـــــر يعتـــــزل
فيهـــا عـــلا و مـــا نـــزل　　إلا علـــــي غـــــزال لعلـــــع
في حبهـــا تســـمو الهمـــم　　في حبهـــا تعلـــو الشـــيم[٢٣]

يعبر الشاعر في هذه القصيدة عن عاطفة إنسانية صادقة جياشة بالمشاعر والأحاسيس ألا و هي حبّ الوطن. و رأينا من خلال هذه الأبيات كيف تبلورت الوطنية في شعر الطهطاوي و لم تكن الوطنية عنده إلا نتيجة عشقه لمصر. فالغزل من وجهة نظر الشاعر ينحصر علي مصر و علي حد قوله: "نظم النسيب و الغزل، في غير مصر يعتزل"، لأنّ فقط بلدته الحبيبة تستحق أن ينظم عليها غزل و هو بذلك يفضل حب مصر عن كل حب آخر لأن ليس بنظره حب أعذب من حب الوطن. و يلاحظ أنّ هذه القصيدة اتسمت بوحدة الفكرة و قوة العاطفة و أصبح لألفاظها أهمية كبيرة حيث أنها محدثة إيقاعاً موسيقياً منسجماً.

و في موضع آخر يحاول الطهطاوي أن يَدعو إلي حب الأوطان و يبيّن أهمية الوطنية و جمالها:

يـــا صـــاحِ حـــبُّ الـــوطن حليـــــةُ كـــــل فَطِـــــن
محبـــــــةُ الأوطـــــــانِ مـــــن شـــــعُب الإيمـــــانِ
في أفخـــــــرِ الأديـــــــانِ آيـــــةُ كـــــل مـــــؤمن٢٤

في هذه القصيدة يدعو الشاعر إلي حب الوطن و هذه الدعوة إلي الوطنية سرعان ما يتأثر بها الشعب و الطهطاوي يريد أن يحثّ الناس إلي الوطنية بكل أحاسيسه و وجدانه و يظهر صدي هذا الشعور جلياً في العالم العربي. فالشاعر قد أهتم بالدعوة إلي الوطنية إهتماماً يلفت النظر و تغني بوطنه هذه القصيدة التي تسترعي الإعجاب و الإطراء. يظهر الشاعر حبه للوطن واضحاً قوياً في هذه المقطوعة التي تقترب من طبيعة النشيد الوطني مضموناً و شكلاً.

٩-٤- الفخر بالعز و المجد في مصر

إنَّ مصر مهد العزة و المجد و لها جذور حضارة عريقة تضرب في أعماق التاريخ و الطهطاوي شاعر الوطنية في مصر يتأثر بهذه الحضارة و المجد و هو يَري إنَّ مصر «كنانة الله في أرضه و إن كتابة تاريخها تعريف بحضارات العالم كله، لشمولية مصر و تمكنها من استيعاب معارف البشرية و هضمها، فمصر الحديثة عنده، هي الحفيدة الشرعية لأرض الفراعنة، صاحبة العز و الأمجاد.»٢٥ و ينبه رفاعة الطهطاوي في لغته الشعرية بمجد و فخر مصر القديم بصورة واضحة:

مصـــــرُ لهـــــا أيـــــادٍ عُليـــــا علـــــي الـــــبلادِ
و فخرهـــــــا ينـــــــادي مـــــا المجـــــدُ إلا ديـــــدني
الكـــونُ مـــن مصـــرَ اقتـــبس نـــوراً و مـــا عنـــه احتـــبس
و مـــا فخارهـــا التـــبس إلا علـــي وغـــدٍ دَنـــيِ
فخـــرٌ قـــديم يـــؤثَرُ عـــن ســـادة و ينشَـــر
زهـــورُ مجـــد تنثـــر منهـــا العقـــول تَجتنـــي٢٦

يفتخر الشاعر بمصر ذات المجد و الفخر و يأتي بهذه القصيدة ليرسم عظمة هذا البلد و في رأيه «لم يكن في الأرض ملكاً أعظم من ملك مصر و كان جميع الأرضين

يحتاجون إلي مصر... و هذا عين التمدن إذ لا يكون ذلك إلا بتقدم الصنائع و الفنون و يؤيده بقايا الآثار المشاهدة التي لا كان مثلها في غير مصر.»٢٧ شبّه رفاعة الطهطاوي في هذه الأنشودة الوطنية، مجد مصر بزهور لطيفة تنتشر في العالم بأسره و تجتني منها العقول. و هذا المجد و الفخر هو سمة من سمات مصر كما نجد أنّ الشاعر صوَّرَ لنا مصر بالنور المشرق المضيء الذي تمتع الآخرون من نوره و من هذا المنطلق عبر عن حبه لمصر و مجده المؤثّل.

إنّ الشاعر يثير في كل جزء من أجزاء قصائده معاني الوطنية و إن مظاهر الفخر و الاعتزاز بأمجاد الوطن تلتمع في أبيات قصائده وتبرز هذه المعاني السامية بروزاً واضحاً و هناك قصيدة وطنية يتغني الشاعر فيها بالمجد و الفخر في الوطن:

وطـــنٌ عـــزيزٌ لا يُهـــان و لا يُضـــام
و حمـــي تعـــززً مـــن علـــي عليـــاه حـــام
مجـــدٌ لـــه، لازال يَختَـــرق الغمـــام
عـــين السُّـــها لِفخـــارِه ذات التمـــاح٢٨

إن معرفة الطهطاوي بتمدن مصر و مجدها هي التي جعلته أن يذخر لها جُل حبه و احترامه. و قد أَنشَدَ الشاعر هذه القصيدة في التغني بحب مصر و تحميس أبنائها ليصلوا إلي ما وصل إليه أجدادهم منذ أيام الفراعنة. و لابدَّ من الإنتباه إلي أن الطهطاوي «يري أن مصر القديمة ما بلغت كل هذا المجد و هذه المدنية إلا بواسطتين: (احداهما) تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية و الفضائل الانسانية. (و الأُخري) هي المنافع العمومية التي تعود بالثروة و الغني و تحسين الحال و تنعيم البال علي عموم الجمعية□٢٩ إن الطهطاوي عالج من خلال شعره هذه الموضوعات لتتخذ الوطنية عنده الفخر بالمجد و العزة في مصر كظاهرة تعكس علاقته بوطنه.

٩-٥- الدعوة إلي الجهاد و الذبّ عن الوطن

تأخذ الوطنية أبعاداً أقوي حين ينظم الشاعر الشعر الوطني ليدعو الشعب إلي الوقوف في وجه الأعداء و الصمود علي الإحتلال و الثورة علي العدوّ و العمل علي تغيير الواقع المرير. و هكذا يتوقف المتلقي عند هذه الأشعار و يتأملها و يتفاعل معها

بشكل لا يوصف و هذا الاتجاه يبدو واضحاً في شعر رفاعة الوطني حيث يدعو الجماهير إلي الحرب و الجهاد بحماس:

للحـربِ هلمُّـوا يـا شـجعان حـبُّ الأوطـان مـن الإيمـان
هيـــــــا اجتهـــــــدوا، هيـــــــا اجتـــــــهدوا

...

و جميـــــــعُ النـــــــاسِ لكـــــــم شهـــــــدُوا
بشجاعتـــــــكم عنـــــــد الميـــــــدان
للحـربِ هلمُّـوا يـا شـجعان حـبُّ الأوطـان مـن الإيمـان
هيـــــــا اتحـــــــدوا، هيـــــــا اتحـــــــدوا
للملَّـــــــةِ سيفُكـــــــم عـــــــضدُ٣٠

تطغي روح الحماسة علي هذه القصيدة بشكل واضح. الجدير بالذكر هنا هو أنَّ شعر الطهطاوي الوطني هو شعر الثورة و الحماسة تتوارد فيه معاني الشجاعة لإثارة الحميّة ومتابعة النضال. و الواقع أنّ «أصل الشعر الوطني هو الحماسة، أي أن تكون ثائر النفس، جياش الفؤاد، فتصبّ ثورة نفسك في بيان يتدفق في قلوب أبناء أمتك فيثيرهم و يثير أحلامهم و يجيش هممهم... و من هنا كانت مهمة الشاعر الوطني مهمة القائد الذي تتجاوب أصداء كلماته في نفوس المواطنون فتحولها إلي طاقة من العزم الثابت، و الإيمان الفاعل، و الطموح الوثّاب، فهو يستنهض الهمم و يحرّك المشاعر، و يلهب حماس الجماهير.»٣١ يستخدم الشاعر الألفاظ التي تحث الشعب علي المقاومة مثل الأفعال الأمر "اجتهدوا" و "اتحدوا" كما أن الشاعر بتعبيره: "للملَّةِ سيفُكم عضدُ" يذكي في قلوب الأبطال بارقة الأمل لمواصلة الجهاد و المقاومة. هذه القصيدة تعتبر أنشودة وطنية في ديوان الطهطاوي يدعو الشاعر من خلالها المواطنون إلي الجهاد و الدفاع عن كرامة الشعب من مخالب العدو. و هكذا تنسجم الوطنية مع الواقع في الوطن. و تتضح لنا هذه الحقيقة إن إحدي من هواجس نظم النشيد الوطني عند الطهطاوي هي دعوة الشعب إلي الدفاع عن الوطن و النهوض و حفظ الحرية و الاستقلال الأرضي.

و في قصيدة أخري يهزّ الشاعر بصوته الثائر عزيمة الشعب و يستنهض الهمم و يدعو فيها إلي حماية الوطن، فيقول:

يـــا حزبنَـــا قـــم بنـــا نســـودُ فـــــنحن في حَربنـــــا أُســـــودُ
عنـــد اللقـــا بأســـنا شـــديدُ هـــامُ عـــدانا لهـــا حصـــيدُ
نحـــن ليـــوثُ الشـــري كمـــاةُ نحـــــن لأوطاننـــــا حُمـــــاةُ
جميعُنـــــا يعشـــــق الحروبـــــا و جمعُنـــــا يـــــألف الخطوبـــــا
هـــل نـــأنف الهـــولَ و الكروبـــا و عيشـــــنا عنـــــدها رغيـــــد
تحـــت ظـــلال الســـيوف نُـــرزقُ و رمحنـــا المـــوتُ و هـــو أزرقُ
بيـــاضُ فجـــرِ الفخـــار أشـــرقُ بـــه ليـــالي العـــدوّ ســـودُ٣٢

في هذه القصيدة نجد الشاعر يخاطب أبناء الوطن و يحرّضهم إلي الجهاد في سبيل انقاذ الوطن المصري. و الواضح أنّ الدعوة إلي الجهاد هنا تقترن مع الفخر فالشاعر يفتخر بشجاعته و شجاعة أبناء شعبه بقوله: "نحن ليوثُ الشري كماةُ، نحن لأوطاننا حُماةُ". و يشير الشاعر من خلال هذه القصيدة بأن الجهاد امر واجب علي المواطنين البواسل و إن الوطن نعمة عظيمة وهبها الله لهم فعليهم الحفاظ عليها و الدفاع عنها و العمل علي تقديمها و رقيها. و الشاعر يري «إن صفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له علي الوطن، بل يجب عليه أيضا أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه، فإذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها علي وطنه.»٣٣ حب الوطن عند الطهطاوي ليس فقط كلمة تقال أو شعر يتغني بل هو فعل يعمله المواطن. فحين يقول المواطن الوطن جميل و الوطن عزيز يجب أن يدافع عنه لآخر قطرة من دمه و لآخر يوم من حياته. ينبغي الإشارة إلي أنّ رفاعة الطهطاوي بتوظيفه لهذه الظاهرة الوطنية و هي الدعوة إلي الجهاد و الذبّ عن الوطن، يعدّ من الأصوات الشعرية المتميزة التي أثرت في وجدان المصريين و العرب.

٩-٦- مدح حكام مصر

يشكل شعر المدح ناحية هامة و محوراً ذا شأن كبير في تراث الشعر العربي كله، و الأمر كذلك بالنسبة لشعر الطهطاوي أيضاً. لاشك إن المديح في ديوان رفاعة الطهطاوي يقترن بفكرة وطنية لم تكن واضحة عنده غير من شعراء العرب السابقين. فقد امتدح

الشاعر الأسرة الحاكمة بأشعار نهج فيها منهج الإشادة بالمفاخر القومية و كانت السمة الرئيسية لهذه المدائح تركيز الثناء علي الجانب المرتبط بعمل وطني دون الجوانب الأخري و طغيان الحديث عن الوطن علي الجوانب الأخري.٣٤ فنتطرق هنا إلي نماذج من مدحه التي تمثلت في مدح محمد علي باشا و الخديوي اسماعيل.

إن محمد علي لعب دوراً بارزاً في دنيا الفكر و المعرفة و له صولات لا تمحي في عالم الثقافة و الحضارة و اتسع عقله لكل جوانب الحياة.٣٥ و كان رفاعة الطهطاوي يمدحه لأنّه كان يهتم بإصلاح المجتمع المصري، فيقول في مدحه:

أحيا بدولته علوماً قد غدت ... لوضوحها تُجلي علي الأذهان

بطلٌ مكارمه الجليلةُ قلَّدت ... هامَ الزمانِ مكللِ التيجان

يهنيك يا مصرُ لقد حزتِ البها ... بمحمدٍ باشا عَلي الشان

فاحظي بفاخر حكمِه و تمتعي ... و بذلك افتخري علي البلدان

مُدّي أكفّ الشكر و ابتهِلي بأن ... يبقيه مولاه طويلَ زمانِ٣٦

يقول الشاعر هنا في حق محمد باشا تعبيرات جميلة و يذكر صفاته الحسنة و المحبّبة و يوصفه بأنه بطل مصر العظيم و صاحب الكرامة و رفيع الشأن. يخاطب الشاعر مصر و يقول: يا مصر اشكري الله علي حكمه و عطاياه حتي يبقي محمد باشا زمنا مديدا في مصر و تنعم مصر بخيراته الوافرة و تفتخر به علي طول الزمان و يبقي لها ركن من اركان العزة و العظمة. كما يبدو إن الحديث علي مصر سيطر علي هذه القصيدة و ظل المدح موضوعاً هامشياً في طياته. نلاحظ في البيت الثالث التورية في كلمة (علي) علي أساس أنها اسم و صفة.

صحيح أنّ لمحمد علي اثراً بيناً في تاريخ نهضة مصر الحديثة، لكن الذي لا ريب فيه، إن الدور الحضاري الذي عرفته مصر يعود إلي عهد الخديوي اسماعيل الذي أعطي التعليم و النهضة الأدبية نصيباً عظيماً من جهوده و أعاد معظم المدارس التي أغلقت و بعث فيها روح الحياة و النشاط.٣٧ و لهذا مدحه الطهطاوي في قصائده و ذكر دوره المهم في مصر:

ألا يـــــا مصـــــرُ فـــــابتهجي بحكـــــم عزيـــــزك الـــــبهجِ
بـــــه تَرقَـــــي ذُرَي الـــــدرجِ و بالحســـــــــني يعاملنـــــــــا
و حـــــان لمجـــــده يـــــومُ تمنّـــــــــاه أوائلُنـــــــــا
مـــــدارسُ مصـــــر قـــــد عـــــادت و عـــــدةُ أهلـــــها ازدادت٣٨

يخاطب الشاعر في هذه المقطوعة مصر و يقول: يا مصر افرحي بحكم الخديوي اسماعيل لأن الحاكم كرّم أهل العلم و أوصلهم إلي ذروة العلم و زوّد من معارفهم بفتحه مدارس مصر من جديد. فقام أهل مصر علي طلب العلم و اتّسعت علومهم بعد ما كانت المدارس مغلقة. فالممدوح في رأي الشاعر أعطي للمجد طابع جديد و يستحق كل الثناء و المديح. رأينا أن الشاعر في مدحه للحكام استهل قصيدته بشعر الوطنية و أطال في الحديث عن الوطن. و من الملاحظ أن القصيدة المدحية هنا خلت من المطالب الذاتية أو المصالح الفردية عدولا عن ذلك إلي مطالب الوطن و مصالح المواطنين. و من هنا يتضح لنا إن المدح في شعر رفاعة الطهطاوي جاء لخدمة الفكرة الوطنية عنده.

نتائج البحث

من خلال بحثنا توصلنا إلي نتائج نذكر أهمها:

- الشعر الوطني هو وسيلة فنية يتخذها الشاعر مسلكاً إلي النضال لا يقل خطورة و أثرا في النفوس عن الفعل النضالي المباشر و إنه إحساس مقدس لا تضاهيه أي قيمة أخري و يستمد من مبادئ الدين و القيم الإنسانية الرفيعة.
- نجد سمات من الشعر الوطني في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي و هناك قصائد جاهلية نستطيع أن ندخلها في ميدان الوطنية.
- يعتبر رفاعة الطهطاوي في طليعة من مثّلَ الوطنية الحديثة في مصر في العصر المعاصر حيث تمَّ استخدام شعره في خدمة الوطن و في سبيل حرية الشعب و استقلاله و قصائده تنمُّ عن حبه و شغفه للشعب المصري و حب كل قضية لها صلة وثيقة بالوطن و قد جعل كلماته أنغاماً تحرك الشعور لحب الوطن.
- إن رفاعة الطهطاوي استمدّ الوطنية من عناصر فطرته الذاتية النقية و تأثير البيئة و تطور الحياة في مصر و معرفته علي الثقافة الفرنسية.

- الطهطاوي يمثل في شعره الوطني نفسيته التي تعشق الوطن و هكذا ارتبطت مشاعر الوطنية بالحنين إلي الوطن و شكلت إحدي مظاهر الوطنية عند الشاعر.
- إن المعالم الأثرية و الأمكنة التاريخية في مصر تشكل أهم عناصر الوطنية في وجدان الشاعر و ترسّخت في معظم قصائده حيث ينبض الشاعر بالحب للآثار و الأمكنة التاريخية بصورة واضحة.
- يفتخر الطهطاوي في شعره الوطني بمصر ذات المجد و الفخر ليشكل هذا الموضوع إحدي مظاهر الوطنية عنده.
- تتجسد الوطنية عند الطهطاوي في دعوة الشعب إلي الذود عن الوطن و النهوض و حفظ الحرية و الاستقلال الأرضي.

هوامش البحث

١- يحيي، الجبوري، الحنين و الغربة في الشعر العربي: الحنين إلى الأوطان، ٢٠٠٨م ، ص ٩.

٢- قاسم، الدروع، نحو تربية وطنية هادفة، ١٩٩٩م، ص ٢٥.

٣- عبدالكريم، شبرو، التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعدالله، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م، ص ٢٤.

٤- قاسم، الدروع، نحو تربية وطنية هادفة، ص ٢٥.

٥- عبدالكريم، شبرو، التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعدالله، ص ٢٤.

٦- رامي، بسكري/ أمال، موصالي، الوطنيّة في شعر حافظ إبراهيم، ٢٠١٦-٢٠١٧م، ص ٢٧.

٧- المصدر نفسه، ص ٢٥.

٨- جمال الدين، الشيال، رفاعة رافع الطهطاوي، د.ت، ص ٢٢.

٩- عبدالمنعم، الجميعي، «حركة الترجمة و تحديث اللغة و الثقافة العربية في مصر خلال القرن التاسع عشر: دراسة تاريخية ثقافية»، ٢٠١٢م، ص ٢.

١٠- عَبدالرحمن، الرافعي، شُعَراءُ الوَطَنية في مصر، د.ت، ص ١١.

١١- جُرجي، زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (الجزء الثاني)، د.ت، ص ٣٥.
١٢- لـويس، عـوَض، تـاريخ الفِكـر المصـري الحـديث مِـن الحَملـة الفرنسـية إلى عَصـر إسمَاعِيل، ١٩٨٧م، ص ٢٩٣.
١٣- منـذر، مَعـاليقي، مَعـالِمُ الفكـرِ العَربـي في عَصـر النهضـةِ العَربيـة، تقـدىم: ياسـين الايوبي، ١٩٨٦م، ص ١٦٦.
١٤- رءوف، عباس حامد، تطور الفكر العربي الحديث، د.ت، ص ١٦.
١٥- يحيي، الجبوري، الحنين و الغربة في الشعر العربي: الحنين إلى الأوطان، ص ٩.
١٦- طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ١٩٨٤م، ص ٨٣.
١٧- المصدر نفسه، ص ٧٣.
١٨- وهيب، طنوس، الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، ١٩٧٥-١٩٧٦م، ص ٢٨٥.
١٩- أحمد، محمد، «الوطنية في شعر رفاعة الطهطاوي»، د.ت، ص ٢٧.
٢٠- طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ص ٩٩.
٢١- لـويس، عـوَض، تـاريخ الفِكـر المصـري الحـديث مِـن الحَملـة الفرنسـية إلى عَصـر إسمَاعِيل، ص ٢٩٢.
٢٢- طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ص ١١٥.
٢٣- المصدر نفسه، ص ٩٦.
٢٤- المصدر نفسه، ص ٨٦.
٢٥- منـذر، مَعـاليقي، مَعـالِمُ الفكـرِ العَربـي في عَصـر النهضـةِ العَربيـة، تقـدىم: ياسـين الايوبي، ص ١٦٦.
٢٦- طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ص ٨٦.
٢٧- لـويس، عـوَض، تـاريخ الفِكـر المصـري الحـديث مِـن الحَملـة الفرنسـية إلى عَصـر إسمَاعِيل، ص ٢٩٢.
٢٨- طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ص ١١٠.

٢٩- لـويس، عـوَض، تـاريخ الفِكـر المصـري الحـديث مِـن الحَملـة الفرنسـية إلى عَصـر إسمَاعِيل، ص ٢٩٢-٢٩٣.
طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ص٨٩. -٣٠
رامي، بسكري و أمال، موصالي، الوطنيّة في شعر حافظ إبراهيم، ص ١٢-١٣. -٣١
٣٢- طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ص ١١٣.
٣٣- عُمَر، الدُّسُوقي، نَشأة النثر الحديث و تطوره، ٢٠٠٧م، ص ٤٣.
٣٤- أحمد، محمد، «الوطنية في شعر رفاعة الطهطاوي»، ص ٢٦-٢٧.
٣٥- منـذر، مَعـاليقي، مَعـالِمُ الفكـرِ العَربـي في عَصـر النهضـةِ العَربيـة، تقـديم: ياسـين الايوبي، ص ١١٨.
٣٦- طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ص ٨٥.
٣٧- منـذر، مَعـاليقي، مَعـالِمُ الفكـرِ العَربـي في عَصـر النهضـةِ العَربيـة، تقـديم: ياسـين الايوبي، ص ١٢٠-١٢١.
٣٨- طه، وادي، ديوان رفاعة الطهطاوي، ص ٩٩-١٠٠.

قائمة المصادر و المراجع

الكتب

١- الجبـوري، يحيـي، الحـنين و الغربـة في الشـعر العربـي: الحـنين إلى الأوطـان، الطبعـة الأولى، عمان، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، ٢٠٠٨م.
٢- الدروع، قاسم، نحو تربية وطنية هادفة، عمان، المطابع العسكرية، ١٩٩٩م.
٣- الدُّسُوقي، عُمَر، نَشأة النثر الحديث وتطوره، القاهرة، دارالفكر العربي، ٢٠٠٧م.
٤- الرافعي، عَبدالرحمن، شُعَراءُ الوَطَنية في مصر، الطبعة الثالثة، القاهرة، دارالمعارف، د.ت.
٥- زيدان، جُرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (الجزء الثاني)، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، د.ت.
٦- الشيال، جمال الدين، رفاعة رافع الطهطاوي، الطبعة الثانية، القاهرة، دارالمعارف، د.ت.

٧- طنوس، وهيب، الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، الطبعة الأولى، ١٩٧٥-١٩٧٦م.
٨- عباس حامد، رءوف، تطور الفكر العربي الحديث، جامعة القاهرة، د.ت.
٩- عوَض، لويس، تاريخ الفِكر المصري الحديث مِن الحَملة الفرنسية إلى عَصر إسمَاعِيل، الطبعة الرابعَة، القاهرة، مَكتبة مَدبُولي، ١٩٨٧م.
١٠- مَعاليقي، منذر، مَعالِمُ الفكرِ العَربي في عَصر النهضةِ العَربية، تقديم: ياسين الايوبي، بيروت- لبنان، دار إقرأ، ١٩٨٦م.
١١- وادي، طه، ديوان رفاعة الطهطاوي، الطبعة الثانية،جامعة القاهرة، دارالمعارف، ١٩٨٤م.

المقالات

١٢- الجميعي، عبدالمنعم، «حركة الترجمة و تحديث اللغة و الثقافة العربية في مصر خلال القرن التاسع عشر: دراسة تاريخية ثقافية»، مجلة دراسات العالم الإسلامي، ٢٠١٢م، ص ١-٩.
١٣- محمد، أحمد، «الوطنية في شعر رفاعة الطهطاوي»، لامك، لانا، د.ت.

الرسائل الجامعية

١٤- بسكري، رامي/ موصالي، أمال، الوطنيّة في شعر حافظ إبراهيم، الجمهورية الجزائرية، جامعة الجيلالي بونعامة، ٢٠١٦-٢٠١٧م.
١٥- شبرو، عبدالكريم، التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعدالله، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج الخضر، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.